الكتابة التّوثيقيّة في الرّواية العربيّة المعاصرة
رواية(مصائر) لربعي المدهون أنموذجا

د. عبد الرحمان بن يطو جامعة محمد بوضياف – المسيلة

الملخـص :

يمكن أن نصنّف رواية " مصائر " للروائي الفلسطيني ربعي المدهون(*) ضمن أدب النكبة، فهي تُشكّل حالة سرديّة استثنائيّة في الرواية العربيّة المعاصرة لأنها تغترف من التاريخ العربي الفلسطيني منذ أن وطئ المحتلون اليهود أرض فلسطين إلى غاية مفاوضات أوسلو وما بعدها، ومن جهة أخرى اشتغل الكاتب على السّرد التّوثيقي الذي حشد له كثير من الشواهد التاريخية التي توثّق للأحداث الفلسطينيّة بدقة، وقد ابتكر المدهون طريقة مستحدثة، وهي تتمثّل في أربع حركات؛ بحيث يسرد لنا في كلّ حركة قصة تبدو لنا في البداية وكأنها منفصلة عن الأخرى ولكن تلتقي جميعها في الأخير في تناغم وفي غير نشاز، تماما مثل الفرقة الموسيقية (الأوركسترا)

Résumé

Nous pouvons décrire les «Destinées» du romancier palestinien Robie Madhoun dans la littérature de la disgrâce. C'est un cas narratif exceptionnel dans le roman arabe contemporain car il s'inspire de l'histoire arabe palestinienne depuis que les occupants juifs ont piétiné la terre de Palestine jusqu'aux négociations d'Oslo et au-delà de ces négociations ; d'autre part, l'écrivain a travaillé avec précision sur le récit documentaire dont il a recueilli beaucoup de preuves historiques documentant les événements palestiniens, Madhoun a conçu un moyen novateur, qui consiste en quatre mouvements ; dans chaque mouvement, il nous raconte une histoire qui nous semble d'abord séparée les unes des autres, mais elles convergent vers

la dernière en harmonie et en non dissonance, tout comme l'orchestre.

عند صدور رواية " المصائر ، كونشرتو الهولوكوست والنكبة " في بيروت عام 2015 ، فوجئ صاحبها في العام الموالي بفوز روايته بالجائزة العالمية للرواية (البوكر) في نسختها العربية ، وأثارت هذه الرواية كثيرا من النقاش النّقدي الأدبي والجدل السياسي؛ لكونها تشكّل نوعا من التّطبيع مع الكيان الإسرائيلي ، وهي رواية ؛ كتبت تحت تأثير اللغة الإعلاميّة لأنّ صاحبها أحد الأقلام الصحافية العربية المهاجرة في بريطانيا ، ولذا نلاحظ استبداد اللغة الإعلاميّة وما تقتضيه من أسلوب مباشر ومواضيع تسجيلية تنحى منحى التّحقيق الصّحفي أكثر من السّرد الرّوائي الذي تتحكّم فيه اللغة الأدبية من جهة وعنصر التّخييل كمادّة أساسيّة وحيويّة متوهّجة في إنتاج الفعل السّرديّ إذْ من المفترض " أنّ السّرد لا يسجل واقعا ، بل يقوم بتركيب عوالم متخيلة مناظرة للعوالم الواقعيّة "(1)

ولذا سعى الكاتب في روايته قدر الإمكان أن يُزاوج بين تقنيات الكتابة الإعلاميّة والسّرد الروائيّ بعيدا عن الأشكال الحكائيّة المتوارثة ، وبهذه الطريقة في تقديري تراجع منسوب التّخييل ليتيح المجال إلى الكتابة تحت سطوة الذاكرة الإعلاميّة كمحفّز تظهر مؤشراته من البداية، ولكن لا ضير في ذلك مادام السّرد هو " فعل لا حدود له يتّسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبيّة أو غير أدبيّة "(2)

وحاول المدهون أن يقتحم الذّاكرة المأهولة بالأوجاع الفلسطينيّة، من خلال سرد كرونولوجيّ لحياة عائلة فلسطينية كأنموذج للمعاناة؛تعيش في الشّتات وترغب في العودة إلى الوطن، ومن هنا تعنّ ثنائيّة الهجرة و العودة التي تشكّل ها جسا لا يفارق وجدان الإنسان العربي الفلسطيني ، ولجأ الكاتب إلى الاشتغال على السّرد التاريخي الذي تبدأ حيثياته مع نكبة (48)،مرورا بنكسة (67) " حدث هذا بعد سنوات ، حين احتلّت إسرائيل في يونيو 1967 ، ما أجّلت احتلاله من باقي فلسطين عام 1948"(3) إلى غاية التّطبيع مع الكيان الإسرائيلي الذي توّجب توقيع معاهدة أوسلو(النرويج) وما بعدها، حَشَد لها كمّ كبير من المعلومات التي يتقاطع فيها التاريخيّ بالسياسيّ بالاجتماعيّ ، ووظف أحيانا لغات متعدّدة ،إضافة إلى اللغة

العربية الفصحى ،اللهجة الفلسطينيّة واللغة العبريّة والإنجليزيّة والفرنسيّة وحتى اللغة الروسيّة(4) و يمكن أن ندرج هذا العمل السّردي ضمن إبداع النكبة ؛ بوصفها تعالج الواقع الفلسطيني الجريح ، " من حجم القمع تولّدت الرواية الفلسطينية وإبداع النكبة والمقاومة"(5)، في ظلّ غياب نقاش حقيقيّ عن سؤال الهُوية والانتماء ،لأنّ الرواية على حدّ تعبير الروائي المغربي عبد الكريم جلطي هي التفكير في الهُوية بدون تساهل ، ومضمون الأحداث الروائيّة؛ يتأسس على أربعة مسارات استوحاها الكاتب من عالم الموسيقى أي من الحركات الأربع للكونشرتو، وهي لفظة تعني في اللغة اللاّتينية القديمة " الكفاح " ، اجتهد صاحبها قدر الإمكان أن يعطينا انطباعا بأنها رواية تتدثّر بثوب صحفي أو تحقيق صحفي يتدثّر بثوب روائيّ ، وهذا طبعا للإمكانيّات التي تضطلع بها الرواية وتميّزها عن غيرها من الأجناس الأدبيّة الأخرى ، فهي "ظاهرة متعدّدة في أساليبها مُتنوّعة في أنماطها الكلاميّة ، متباينة في أصولها ، يقع الباحث فيها على عدّة وحدات أسلوبية غير متجانسة ، توجد أحيانا في مستويات لغويّة مُختلفة ، وتخضع لقوانين أسلوبيّة مُختلفة."(6)

والطّريقة الرباعيّة التي ابتكرها المدهون تبدو في الوهلة الأولى مختلفة في مساراتها ولكن في الأخير تلتقي و تنسجم وتتآلف ، توهم القارئ وكأنها مركّب قصصي غير متجانس كلّ عنصر مستقل عن غيره ولهذا استوحى نظام الأوركسترا الموسيقيّة لتعدّد عناصره ولكن في تناغم دون نشاز؛كالآتي :

الحركة الأولى :

وهذه الحركة تجري أحداثها أيام الانتداب البريطانيّ على فلسطين ، إذْ تبدأ بقصة غراميّة بين فتاة فلسطينيّة عكاويّة من أصول أرمينيّة تدعى إيفانا أردكيان، وبين طبيب بريطاني، تتزوّجه وتنجب منه بنتا ثم تسافر معه إلى لندن عام (1948) وبعد عمر طويل وقبل وفاتها توصي إيفانا ابنتها جولي بحرق جثتها ؛ونثر جزء منها في نهر التايمز بلندن والجزء الآخر يدفن في عكا القديمة مسقط رأسها أو في القدس.(7)

والحركة الثانية :

وهي حكاية مركّبة من قصتين ، إحداهما تبدأ جنين دهمان تكتب روايتها (فلسطيني تيس) عن محمود دهمان اختار الهجرة مع عائلته من المجدل (عسقلان)إلى غزة أيام النكبة ، وجد نفسه ملاحقا من المخابرات المصريّة يهرب سرّا عائدا إلى المجدل ويترك خلفه عائلته ، ومن سوء حظه ترسم الحدود مع إسرائيل وغزة ؛ فوجد نفسه مُعلّقا وتعذّر عليه العودة لأسرته الصغيرة ، يتزوّج مرة أخرى ويعيش حياة جديدة ولكن تحت طائلة سياسة الأمر الواقع بمعنى آخر : فلسطيني في دولة تدعى (إسرائيل).(8)

الحركة الثالثة :

قرّرت جولي ابنة إيفانا أن تنفّذ وصية أمّها المتوفاة بمساعدة زوجها وليد دهمان فيسافران معا إلى فلسطين المحتلّة ، وفي أثناء زيارتهما قام الاثنان بجولة في أنحاء البلاد وزارا كل من : حيفا ، وعكا ، ويافا ، والمجدل وعسقلان ،والقدس ، ومن خلال هذه الزيارة ؛ أحسّ كلّ واحد منهما بجاذبيّة خاصة وغير منتظرة نحو المكان وعطره الجذّاب فقرّرا التّفكير في العودة النهائيّة والاستقرار في أرض الوطن ولكن هيهات.(9)

الحركة الرابعة :

يستحدث الكاتب مسوّغا ليمرّر خطابا تاريخيّا وسياسيّا ، من خلال زيارة وليد دهمان لمتحف (يد قشيم) في القدس ، الذي يؤرّخ للمحرقة النازية ضدّ اليهود في الحرب العالميّة الثّانيّة ، ويقارن وليد بينها وبين مجزرة دير ياسين التي ارتكبتها العصابات الصهيونيّة في حقّ الفلسطينيين الأبرياء عام 1948.(10) واليهودي الذي نجا من المحرقة النازيّة بالأمس ها هو اليوم يعاقب الفلسطيني البريء الذي لا ناقة ولا جمل في المحرقة و من هنا ، تحوّل الضحية إلى جلاّد، اشتغل المتن الروائيّ على كم هائل من المعلومات والأحداث التاريخيّة المُوثّقة بالتواريخ وكأنّه يريد بذلك ترتيب الذّاكرة الفلسطينيّة، وهو يوجّه خطابه للمتلقي المقصود بأمانة؛ يرافع من خلالها على ما لحق من ظلم وتآمر على حقّ الشّعب الفلسطينيّ في الحياة على أرضه ، بأسلوب سرديّ لم تألفه الذّائقة العربيّة المعاصرة ، والسّرد في أحد أوجهه هو " نقل المعرفة ممن يعرف إلى مَنْ لا يعرف"(11)

وحاول المدهون أن يكتب هذه المرّة بلغة تنأى بنفسها عن اللغة الاستعاريّة التي تشكّل أحيانا عبئا على النّص الروائي الواقعي إذْ اختار البحث عن مسارات متوارية داخل اللغة الروائية نفسها ليمرّر خطابه المقصود بطريقة ما ؛نحو القارئ الواعي، فتأتي المعلومات تلاحق بعضها البعض لتضيء النص وتبدّد عوالمه المظلمة، "عالم من الوعي المتعدّد تعمد جوانبه المختلفة إضاءة بعضها البعض"(12)،توثّق لكثير من الأحداث الهامة المرتبطة تاريخيا بمنطقة الشّرق الأوسط ".. بعد وصول جون إلى لندن في مايو 1948 ، عائدا من فلسطين وقد أصبحت إسرائيل"(13)، وهي حادثة مؤلمة تؤرّخ لاحتلال أرض فلسطين من طرف العصابات الإسرائيليّة، بعد أن تآمر عليها العرب والعجم ، وها هي المدينة بدأت تفقد معالمها العمرانيّة و تطمس هويتها الثّقافيّة بفعل التّهويد الذي لحق بأسواقها وشوارعها وجوامعها وكنائسها ودورها العريقة وحدائقها .مثل هذا الجامع الذي يتحدّث عنه الراوي قائلا: "عدت أتأمل ، بمرارة ، ما تبقى من الجامع الكبير الذي بناه الأمير المملوكي، سيف الدين سلار، عام 1300 مئذنة ترتفع قليلا عند زاويته اليسرى مثل منارة قديمة هجرتها السفن وبضع قباب بدت طاقيات من الصوف شاحبة اللون وقد تآكل وبرها. "(14)

ثم يتحوّل السارد ليحدثنا على صورة تشكّل خطأ إستراتيجي ارتكبه أهل فلسطين في حقّ وطنهم والمتمثل في هروب سكان البلدة من بيوتهم وتركوها عرضة لليهود الغزاة ليشغلوها وتصير من ممتلكاتهم وفي هذا السياق يقول الراوي: " دخلنا البيت الذي كان لنا قبل سقوط المجدل عسقلان في أيدي القوات الإسرائيليّة بتاريخ4 نوفمبر1948 ...والسوق القريبة بعد أن هجر أصحابه ، وصار مُشاعا لمن يسرقه بمبادرة شخصية، أو تسرقه له الوكالة اليهوديّة التي وزعت الغنائم من أملاكنا ، بعد احتلال المدينة، على بعض العائلات اليهودية المهاجرة."[15] ، وامتدت الرواية تسرد الأحداث العربية والإقليميّة التي على علاقة بالفلسطينيين كاحتلال العراق للكويت وما ترتّب عنه من مآسي للجالية الفلسطينية المقيمة في الكويت " أخبرتني جنين ، بأنّ زكريا عمل في الكويت منذ ستينات القرن الماضي حتى حرب الخليج الثانية عام 1991 في أغسطس من العام نفسه." (16) ولم يكتف الكاتب بذلك بل راح يفتّش عن كلّ متعلّقات الشعب الفلسطيني ليذكره في الرواية كقوله مثلا عن الشرخ السياسي

بين حماس وفتح " ويشمل ذلك من سقطوا في تصفية حسابات سياسية وحزبية داخلية بين جناحي العائلة الحمساويّ والفتحاويّ" [17]

أو كالإتيان على ذكر الانتفاضة الفلسطينية التي دوّت العالم وعرفت إعلاميّا بأطفال الحجارة نسبة إلى السلاح السلمي والبسيط الذي استعمله الأطفال ولم يتركوا بذلك مبررا للجيش الإسرائيلي لكي يفرط في استعمال القوّة " ثم أخذتني إلى الانتفاضة الثانية التي انطلقت في 28سبتمبر 2000"(18)

ومن الروائيين الفلسطينيين الذين خصّهم المدهون بالذكر صاحب رواية (المتشائل)؛ إميل حبيبي (1921.1996) الذي أوصى أن يُكتب على قبره (أنا باقٍ في حيفا) والمتحصّل على الجائزة التّقديريّة في الأدب التي تقدّمها الدّولة العبريّة للمبدعين ، وربما نال هذا التّتويج لأنه كان من المنخرطين في اليسار الإسرائيلي كغيره من الشباب الفلسطيني الذين يعيشون في الخط الأخضر ويحملون الجنسية الإسرائيليّة. "وعندما نال إميل حبيبي جائزة الدولة الإسرائيليّة للآداب عام 1992 وتسلّمها من الرئيس الحكومة آنذاك إسحاق شامير في احتفال رسميّ بهي"(19) ولم ينس الكاتب أن يشير إلى القدرات النووية الإسرائيليّة ا في المنطقة ، والتي تنكرها إسرائيل دوما في المحافل الدّوليّة كمفاعل (ديمونة) في صحراء النقب "وصارت تأتيها الريح من خمس جهات وما بينها ، محملة بكلّ أنواع الغبار بما فيه النووي المحلي الذي قد يأتي من مفاعل (ديمونة) في النقب"(20)

وفي نفس السياق فضح الكاتب الخطاب العربي الرسمي المزيف و انتصارات جيوشه الكاذبة على الجيش الإسرائيليّ ، والدليل على ذلك ما حققته إسرائيل على الأرض من توسعة جغرافية على حساب الدول المجاورة بضمها لهضبة الجولان السورية وصحراء سيناء المصريّة ." ما أطول البلاد ، زاد عام 1967 بهضبة الجولان في الشمال الشرقي ، وبقطاع غزة وسيناء جنوبا"(21)، ومن المشاهد الجميلة المرتبطة بالمكان الفلسطيني هذا الوصف الذي استوقف عنده الكاتب مُمعنا في وصف طبيعة فلسطين الخلاّبة ، فهي ليست أرض للنزاعات فقط بل لها جانبها الجمالي الذي حباها به الله سبحانه وتعالى من جبال وأنهار وغابات وسفوح ؛و كلّ أنواع النباتات والخيرات الأخرى التي يتمتع بها الإنسان الفلسطيني المقهور في أرضه

ووطنه تضاف إليها الذكريات الجميلة التي بقيت منقوشة في الذاكرة الفلسطينيّة ، ومهما يكن فإنّ فلسطين تسكن في وجدان أبنائها ، ولا يمكن لإرادة المحتل الغاصب أن تجتثها .

"واصلت السيارة صعود الهضاب القريبة المُشجرة وهبوطها أخذتنا إلى ماضينا الذي كان حاضرنا، عندما كانت أرضها كصدر ثوب فلاّحات بلادنا، مطرّزة بالزعتر، والعكوب والبرقوق، وعصا الراعي، والسوسن، وقرن الغزال، وسيف القمح ، والزعفران بأنواعه ، وترمس الجبال وكانت أشجار السنديان ، والخروب والمل ، والملول ، والبطم بأنواعه ، والسيال ، والسدر ، وقاتل أبيه ، وعروس الغاب والصفصاف والزعرور والدلب ، تزيّن سفوحها ، بينما تحمل نسائمها روائح نباتات تدعو المارة والعابرين إلى الصعود لجمع أوراقها."(22)

ويعود مرّة أخرى ويتذكّر بمرارة تاريخ احتلال فلسطين وما لحق به من مجازر ضدّ الإنسانيّة الفلسطينيّة كمجازر (دير ياسين) ؛ راح ضحيتها فلسطينيون أبرياء غدرا من طرف العصابات الصّهيونيّة الغازيّة "دير ياسين هي المذبحة اللي غيّرت التاريخ ورسمت الملامح القاسيّة لنكبة 1948"(23)

كما يذكّرنا الكاتب مرة أخرى بزيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل في سبعينيّات القرن الماضي والتي فتح بها المجال واسعا للتّطبيع مع إسرائيل." حين نزور المدينة وننزل ، بعد أيام ، نزل الرئيس المصري السابق ، محمد أنور السادات في زيارته لحيفا عام 1978"(24)، في الأصل أنّ الأكل واللباس من المقتضيات الوظيفية في الحياة ، ولكن قد يتجاوزان وظيفتها لتتحوّل إلى قيمة ثقافيّة ترتبط بهُوية الأمة التي تنتسب إليها مثل أكلة (الكنافة) التي يشتهر الشّعب الفلسطيني عن غيره من الشعوب العربيّة .

" (أكم صينية كنافة بتعملو في اليوم يا معلم)؟

سألت الشاب الأسمراني الذي فتل قدوم الكنافة عضلاته"(25)، ومن الأمور التي تميّز الثقافة اليهوديّة في العالم كثرة الخرافات والأساطير التي تؤثّث المجتمع الإسرائيلي ؛ طبعا والمستمدّة من نصوصهم المقدّسة كالتلمود والتوراة ومن ذلك قول وليد لإيفانا في حفل تنفيذ وصية والدتها : " أتعرفين أنّ اليهود يعتقدون بأنّ من تدفن

جثته في تلك البلاد ، يكون أول من يُبعث يوم القيامة حيا يوم ويكون في مقدمة المنتظرين على باب الجنة يوم القيامة"(26)

ومن المعتقدات اليهوديّة يوم عطلة السبت أيضا " أن دفع النقود أو تلقيها في عطلة السبت، يعد خطيئة عند المتدينين اليهود "(27)، وأشهر الخرافات التي تروج لها الأساطير الإسرائيليّة ، هو قصة الهيكل المزعوم التي يعتقد اليهود أنه موجود في أسفل الأقصى ، وحائط البراق الذي منه أعرج الرسول (ص)إلى السموات العُلى حتى سدرة المنتهى هو الآن (حائط المبكى) عند اليهود . " أخذني فضول غريب إلى التعرف على المكان الذي صار (حائط المبكى) ، يؤمه المتدينون اليهود ، ويبكون خسارة الهيكل"(28)

هذا الكَم من المعلومات التاريخيّة المتزاحمة ؛ أحيانا لا مبرّر له، ويمكن يأتي في سياق الحشو؛ إذْ نلاحظ أنّ الكاتب لم يترك خبرا أو معلومة سياسية متعلّقة بفلسطين وإلاّ وذكرها فيجد القارئ نفسه وكأنه يقرأ في مجموعة من القصاصات الصّحفيّة القديمة ، تُقحم إقحاما داخل السياق ، وقد يُفسّر أحيانا أنّ الكاتب دخل في مغامرة التجريب وما ينبثق عنه من رؤى وتصوّرات تقتضيها الذّات المُبدعة، والتي تحفّزها الرغبة المتأججة للتجديد. ومن هنا جاءت الحاجة إلى هذا التّمازج الغريب بين المعلومات الإعلاميّة والسياسية والتاريخيّة والثقافية، لتكوّن في الأخير المشهد البانورامي للرواية التي تشكّل في وجهها الآخر خطابا موازيا، هو ما يسعى إليه صاحب المدوّنة حتى يتسنى له أن يمرّر من خلاله رسائل متعدّدة للمتلقي الفلسطيني المعني في المقام الأول بهذا الكلام .

الإحالات :

(*) . روائي فلسطيني مقيم بلندن، صدرت له رواية "مصائر، كونشرتو الهولوكست والنّكبة" عام 2015 عن المؤسسة العربية للدراسات وحازت على الجائزة العالميّة للرواية العربية عام 2016، وهي النسخة العربية لجائزة "البوكر" العالمية للرواية.

(1) جريدة الحياة، الموقع الإلكتروني:www. Alhayat.com بتاريخ 2017/09/23

(2) سعيد يقطين ، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ط1، 1991 ، ص46